

فَضْلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَكَانَتُهُ

إن شهر رمضان المبارك هو شهر القرآن فيه نزل قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) [البقرة:١٨٥] ، وهو شهر الذكر وخير ما ينبغي للعبد أن يذكر الله به في هذا الشهر الكريم هو كلامه - تبارك وتعالى - الذي هو خير الكلام وأحسنه وأصدقه وأنفعه ، وهو وحي الله وتنزيله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى على أفضل رسول ؛ على عبده ومصطفاه وخيرته من خلقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وكم هو جميل بنا أن نستشعر فضل القرآن وفضله وعظم مكانته ، لا سيما ونحن في الشهر الذي فيه أنزل .

يقول الله تعالى في بيان شرف القرآن الكريم وفضله : (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [الفرقان:٣٣] قال ابن كثير رحمه الله : ((في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً ، ليلاً ونهاراً ، سراً وحضراً ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد صلوات لله وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله الله)) (١) اهـ.

إن فضل القرآن الكريم وشرفه ورفيع قدره وعلو مكانته أمر لا يخفى على المسلمين ، فهو كتاب الله رب العالمين ، وكلام خالق الخلق أجمعين ، فيه نبأ ما قبلنا ، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم ، وقدر القرآن وفضله هو بقدر الموصوف به وفضله ، فالقرآن كلام الله وصفته ، وكما أنه تبارك وتعالى لا سمي له ولا شبيهه في أسمائه وصفاته فلا سمي له ولا شبيهه له في كلامه ، فله تبارك وتعالى الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته ، لا يشبهه شيء من خلقه ، ولا يشبهه هو تبارك وتعالى شيئاً من خلقه، تعالى وتقدس عن الشبيه والنظير (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:١١] . والفرق بين كلام الله وكلام المخلوقين هو كالفرق بين الخالق والمخلوقين ، قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله : ((فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرب على خلقه، وذلك أنه منه)) (٢) . وقد روي هذا اللفظ مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن رفعه لا يثبت كما أوضح ذلك الإمام البخاري رحمه الله في كتابه (خلق أفعال العباد) وغيره من أئمة العلم(٣)، وأما معناه فحق لا ريب فيه ، ولا ريب في حسنه وقوته واستقامته وجهال مدلوله ، وقد استشهد أهل العلم لصحة معناه بنصوص عديدة ، بل إن الإمام

البخاري رحمه الله جعله عنواناً لأحد تراجم أبواب كتاب فضائل القرآن من صحيحه فقال في الباب السابع عشر منه : " باب فضل القرآن على سائر الكلام " .

والواجب علينا معاشر المؤمنين أن نعظم القرآن الكريم الذي هو كلام ربنا ومصدر عزنا وسبيل سعادتنا ، ونحفظ له منزلته ومكانته ، ونقدره حق قدره ، ونحسن فهمه ، ونعمل به . يقول ابن مسعود رضي الله عنه : ((من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله عز وجل فليعرض نفسه على القرآن ؛ فإن أحب القرآن فهو يحب الله عز وجل ، فإنها القرآن كلام الله عز وجل)) (٤). ويقول رضي الله عنه : ((القرآن كلام الله عز وجل ، فمن رد منه شيئاً فإنها يرد على الله عز وجل)) (٥).

هذا وقد كان للسلف رحمهم الله عنايةً فائقةً واهتماماً بالغ بالقرآن العظيم في شهر القرآن شهر رمضان المبارك، وأسوتهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان يلقاه جبريل كل ليلة من رمضان يدارسه القرآن. روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)) (٦) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره ، وهذا أمرٌ يُشعر لكل من أراد أن يزيد في القراءة ويطيل وكان يصلي لنفسه فليطوّل ما شاء ، وكذلك من صلى بجماعة يرضون بصلاته ، أما ما سوى ذلك فالمشروع التخفيف ، قال الإمام أحمد لبعض أصحابه وكان يصلي بهم في رمضان : ((إن هؤلاء قوم ضعفاى اقرأ خمساً ستاً سبعاً. قال فقرأتُ فختمتُ في ليلة سبع وعشرين)) (٧) ، فأرشده رحمه الله إلى أن يراعي حال المأمومين فلا يشقُّ عليهم .

وكان السلف رحمهم الله يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها ، فكان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان ، وكان النخعي رحمه الله يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقية الشهر في ثلاث ، وكان قتادة رحمه الله يختم في كل سبع دائماً وفي رمضان في كل ثلاث وفي العشر الأواخر كل ليلة ، وكان الزهري رحمه الله إذا دخل رمضان قال: ((فإنها هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام)) ، وكان مالك رحمه الله إذا دخل رمضان يقرأ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف ، وكان قتادة رحمه الله يدرس القرآن في شهر رمضان ، وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن . والآثار عنهم في هذا المعنى كثيرة (٨).

رزقنا الله وإياكم حُسن اتباعهم والسير على آثارهم ، ونسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا أن یغمر قلوبنا بحب القرآن وتعظیمه وتوقیره والعمل به ، وأن یجعلنا من أهل القرآن الذین هم أهل الله وخاصته.

(١) تفسیر ابن کثیر (تفسیر سورة الفرقان) .

(٢) رواه البیهقی فی شعب الإیمان (٢١٣٧) .

(٣) انظر الضعیفة للألبانی (١٣٣٤).

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد (١/٤٨٨، رقم ١٢٥).

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد (١/١٤٤، رقم ١١٩).

(٦) البخاری (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) واللفظ للبخاری .

(٧) ذكره ابن رجب فی لطائف المعارف ص ١٨٠ .

(٨) انظر لطائف المعارف لابن رجب ص ١٨١ .